كتاب
الدرّ المرصوف في تاريخ الشوف (تتمة)

تأليف القس حنانيا المنيّر من الرهبانية الشويرية

مهّد له وعلّق حواشيه ونشره
الاب اغناطيوس مرکيس
من الرهبانية الشويرية

الامير جهجاه الحرفوش

وفي سنة ١٢٠٢ (١٧٨٧) حضر والياً على دمشق الآظن ابرهيم باشا . وبعد وصوله تقدمت اليه الشكايات على الامير جهجاه الحرفوش حاكم بلاد بعلبك انه عاصي الدولة ولا يدع احد يتولى بلاد بعلبك سواه وانه حارب الدولة مرارًا وقتل كثيرًا من رجالها . فغضب الآظن ابرهيم على الامير جهجاه وارسل الى الامير كنج ابن الامير محمد الحرفوش ان يكون والياً على تلك البلاد وامره ان يطرد عمه الامير جهجاه من هناك وامدّه بعسكر من اصحابه . ولما بلغ الامير جهجاه ذلك امر اهل مدينة بعلبك وقراها ان يرحلوا . وتهدد بالقتل كل من يخالف امره . وكسر حجارة الرحى التي هناك. فرحلت جميع الناس . ونهض بعشيرته الى قرية من معاملة بعلبك يقال لها ضبه . وحضر عسكر دمشق الى بعلبك فسار به الامير كنج الى ضبه وحاصر الامير جهجاه بها وضايقه وقطع عنه السبيل وتضايق الامير جهجاه وكاد يغلب . وكان قد ارسل الى الامير يوسف الشهابي مستغيثاً به. واستنجد الامير شديد مراد ايضاً . وبينما هو في ذلك الضيق اقبل عليه عسكر الامير يوسف فقوي عزمه وخرج الى قتال الامير كنج فقتل من عسكر الدولة نحو خمسين نفرًا . وانهزموا .

ثورة المماليك

وفي سنة ١٢٠٣ (١٧٨٨) تباين لاحمد باشا الجزار خيانة بين سراريه مع البعض من مماليكه . فعزم على قتلهم وترقب الفرصة حتى صادف البعض من

المماليك في الدار فهجم عليهم . ولما ايقنوا بالهلاك وثبوا عليه فجرحوه وقامت الضجة في داره . فسمع باقي المماليك ونهضوا لاسعاف اصحابهم . وتعصبت لهم قواد العساكر لان الجميع كانوا قد ضجروا من ظلم الجزار وكرهوا دولته . وخرجوا جمهورًا الى خارج البلد وخرج معهم سليم باشا . ولم يبق عند الجزار الا نفر قليل . وشاع الخبر ان مماليك الجزار قتلوه فسرت الناس بذلك واستبشرت وتعصبت الارط ضد الوزير واموالوا اليهم سليمان باشا واتفقوا على انهم يأخذون اولا مدينة صور فيجعلونها حصنًا ومنزلًا ثم يرجعون الى عكا . فراسلوا اهل صور على ذلك فلم يجيبوهم خوفًا من غائلة الجزار . فنهض سليم باشا بالعسكر وحاصر صور وضايقها ففتحها بالسيف وكان يومًا هائلًا على اهلها من كثرة القتل والسبي والنهب واعملوا السيف في عسكر الجزار الذي كان بها فلم يسلم احد منه . وكان الجزار قد ارسل عسكرًا من المغاربة لاسعاف اهل صور وكان باقيًا خارج البلد فرجع اليه سليم باشا . ولما رأت المغاربة ذلك هربت الى عكا وتبعها سليم باشا بمن معه ونزلوا خارج عكا واردوا ان يفعلوا بها كما فعلوا في صور فخاف الجزار من ذلك ولم يجد له سبيلًا الا الفرار فعزم ان ينزل في البحر ويترك لهم المدينة . وكان يومئذ الشيخ محمد القاضي في عكا فاشار على الجزار ان يتجهز للسفر ويعد له سفينة في الميناء حتى يتوسط الليل فيخرج من عنده من الرجال بالمدافع ويكبس المماليك وهم نيام فان ظفر بهم فهي الحاجة والا فالسفينة حاضرة . فاعجب الجزار هذا الرأي وتأهب للسفر وارسل الرجال الذين عنده فكبسوهم ليلًا وكان القوم نياماً فما انتبهوا الا والرجال قد احاطت بهم والهبتهم بالمدافع فانذعروا ولم يقدروا على الثبات فانهزموا وقتل منهم جماعة وتركوا اثقالهم وخيلهم وسلاحهم فطاب قلب الجزار وكان قد قبض على جملة مماليك فقتلهم وقتل جميع السراري التي عنده واستخدم الفرد محمد وعبد الرحمن الطويل وجماعتهما مكان الرجال الذين كانوا عنده وتشتت المماليك واحزابهم في كل مكان .

وفي هذه السنة تقدم الامير علي ابن الامير اسماعيل حاصبيا الذي مات في سجن الامير يوسف فاستغاث بابرهيم باشا والي دمشق وقدم له هدايا واموالا وسأله الاسعاف على الامير يوسف في رجوع ولاية حاصبيا اليه ليطرد الامير

اسعد الذي كان اقامه الامير يوسف حاكماً . وقبل وصول العسكر بلغ الامير يوسف ذلك فجهز عسكراً من البلاد وارسله الى وادي التيم. فلما سمع عسكر دمشق بقدوم عسكر الجبل خشي وعاد راجعاً الى مكانه ولما رأى الآظن ابرهيم قوة الامير يوسف وشدّة بأس قومه اراد مصادقته فكتب اليه كتاباً لطيفاً يتضمن المعاتبة له على محاماته عن الامير جهجاه الحزفوش وقتاله لعسكر الدولة . فالطف له الامير يوسف في الجواب واعتذر . واخيراً صار الاتفاق برضى ابرهيم باشا ان يبقى الامير جهجاه حاكماً في بلادّ بعلبك وان يبقى حاكم حاصبيا في تصريف الامير يوسف . وكان الواسطة في ذلك الشيخ عباس التل حاكم الزبداني ودفع الامير جهجاه الى ابراهيم باشا خمسة عشر الف غرش وحضرت له خلعة الولاية وارسل الوزير قبض على الامير كنج وطلب منه سبعة الاف وخمسمئة غرش بدعواه انه صرفها على العسكر الذي جهزه معه . ولم يكن عند الامير كنج مال . فوضعه في السجن . وكان وقت طلوع الحج . فخرج ابرهيم باشا مع الحجاج . وبلغ الامير جهجاه ذلك فارسل ورشى متسلم المدينة على قتله وطلب له حكم بلاد بعلبك الذي لا يليق لسواه .

وفي اواخر هذه السنة لما حضر الآظن ابراهيم باشا من الحج نهضت ضده اغوات الارط واكابر البلد وحساربوه وقتلوا من عسكره مقدار ثلاثمئة نفر وطردوه من دمشق الشام . فمضى واقام في مدينة حمص وعرض الى الباب العالي بما كان فاتاه الجواب بما يرضيه وحضر له تقرير ولاية دمشق .

وفي هذه السنة توفي الامير اسماعيل ابو اللمع . وكان اكبر امراء المتن ورأس سمية بني قايدبيه . وكان صاحب سطوة ونباهة. وتخلف له ثلاثة اولاد وهم الامير حسن والامير عساف والامير حيدر .

وفيها توفي الشيخ كليب نكد في دير القمر وكان رأس سمية المناصف واكبر اصدقاء الامير يوسف .

وبها صارت ثلجة عظيمة اتصلت الى حدود سواحل البحر .

وبها في اليوم الرابع والعشرين من شهر نوار انكسفت الشمس عند الظهر وذلك في هلال رمضان .

حكم الامير بشير الثاني ١٢٠٤ – ١٢٥٦ (١٧٨٩ – ١٨٤٠)

الحقبة الاولى[1]

وفي سنة ١٢٠٤ (١٧٨٩) لما حضر التقرير للآظن ابرهيم على ولاية دمشق الشام حضر ايضاً امر لاحمد باشا الجزار والامير يوسف في اسعافه على الدخول اليها والانتقام من العصاة الذين بها. وكان ابراهيم باشا قد انفذ الاوامر وتوجه الى دمشق فلم يقبلوه ايضاً فمكث في الخارج حتى وصل الاسعاف من الجزار والامير يوسف. فنهض وحاصر المدينة مقدار عشرين يوماً وفتحها. واما الامير علي ابن الامير اسماعيل فلما فرغت يده من الآظن ابرهيم في توليته حاصبيا التجى الى احمد باشا الجزار فقبله وطيب قلبه وكتب الى الامير يوسف ان يعطيه حاصبيا ومرجعيون. فأبى وغره الطمع وانقاد الى رأي الشيخ غندور الخوري ونسي ما اصابه من جرى ذلك. فغضب عليه الجزار وعزم على خلعه من الولاية. ثم جهز عسكراً وارسله مع الامير علي الى حاصبيا فتزح الامير اسعد الذي كان والياً عليها من قبل الامير يوسف وعزم الامير يوسف على مقاومة الجزار فجمع عسكراً من البلاد واستنجد الامير جهجاه الحرفوش. فاجابه وجمع رجال بلاد بعلبك. ومشى عسكر الامير يوسف والامير جهجاه على حاصبيا. والتقت العساكر في وادي ابي عباد وكان ذلك في العشرين من تموز. وانتشبت الحرب بين العسكرين فاقتتلوا قتالاً شديداً وهجم الامير جهجاه على عسكر الدولة فاذاقهم الوبال. وجاهدت رجال البلاد فكسرت عسكر الدولة ورجع الى عكا منهزماً وقد قتل منه نحو مئتي نفر. فاشتد غضب الجزار وجهز عسكراً آخر وارسله الى البقاع واخذ يضبط التلال التي هناك يريد بذلك مضايقة اهل البلاد لكي يطلبوا الراحة لانفسهم بتركهم الامير يوسف. وارسل فقتل المشايخ بني جنبلاط. وهم اخذوا يفتدون اهل البلاد. فطاب الاكثرون. ولهجت الناس بتنزيل الامير يوسف ولاموه لمخالفته امر الجزار طمعاً في مرجعيون التي وقعت كل تلك البلابل بسببها على غير احتياج اليها. ولما رأى الامير يوسف ان اكثر المناصب خانت عليه وان الجزار قد صار خصماً له علم انه لا يقدر على الثبات فعزم على ترك الولاية من نفسه وجهز نساءه واولاده الى

١) تمتاز هذه الحقبة بقلة الاستقرار وبكثرة ارهاق الشعب بالضرائب.

المتن . وراسلت المناصب بعضها . واتفق الجمهور على تولية الامير بشير ابن الامير قاسم وعرضوا بذلك الى احمد باشا الجزار فاجاب واستدعى الامير بشير اليه . فواجه الامير يوسف واتفق معه وعاهده الامير يوسف ان يخلي له دير القمر وينزل في اواخر البلاد . وتعهد له الامير بشير انه لا يضره ولا يسعى فيه بما يؤذيه. وحضر الامير بشير الى عكا برضى الامير يوسف واعطاه نفقة السفر. ولما دخل على الجزار رحب به والبسه خلعة الولاية وجهز معه عسكراً نحو الف نفر اوصلوه الى دير القمر. فحضرت اليه المشايخ الجنبلاطية والهادية والنكدية واكثر مناصب البلاد . وكان الامير يوسف يومئذ قد حضر الى المتن . وكان الشيخ محمد القاضي في عكا . وقد ذكرنا ان الامير يوسف كان قد حبس الشيخ محمد في نوبة الامير اسماعيل وعذبه عذاباً شديداً حتى ان المغاربة الذين كانوا يتولون عذابه كانوا يقطعون لحمه ويطعمونه منه . وكان بعد ان قطع الامير يوسف لسانه صار يتكلم ولكن كلاماً ضعيفاً . ولما وجد سبيلاً عليه عند الجزار قال له : يا مولاي ان الامير يوسف ما دام في البلاد لا يكون فيها راحة ابداً . فان رأيت ان تأمر الامير بشير في طرده فتنقطع آماله وتتكسر عزائم احزابه. وكان الجزار معجباً برأي الشيخ محمد من وقت نوبة المماليك فقبل كلامه وارسل معه كتاباً الى الامير بشير ان يقوم لطرد الامير يوسف فارسل الامير بشير الى الامير يوسف يعلمه بذلك. واشار عليه ان يتوجه نحو جرد كسروان . فقام الى هناك وانتهى الى وطا الجوز . ونهض الامير بشير من دير القمر وسعى في اثره امتثالاً لامر الوزير حتى وصل الى المتن فاعلم الامير يوسف ان يقوم الى بلاد جبيل . فقام الى قرية لحفد ومن هناك الى الطاقورة . وما زال الامير بشير ساعياً في اثاره . ولما الامير يوسف انه قد اعتمد ذلك باطناً ونقض العهد الذي كان بينهما . فعزم على مقاومته ونبه على رجال جبة بشري ورجال المشايخ الحمادية وارسلهم الى وادي الميحان حيث يعلم ان الامير بشير يسلك اليه . وهو مكان عسر لا تسلك فيه الخيل الا على طريق ضيق حرش. فاكتنوا هناك حتى وصل عسكر الجزار والامير بشير معه. ولم له علم بهذه المكيدة . فخرجت عليهم الرجال والجتهم بالرصاص فانذعرت المغاربة والارناؤط وانكسروا من وجه القوم . وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وتفرست رجال الامير يوسف . وكاد ان ينكسر كل عساكر الامير بشير . فانتخى الامير بشير حينئذ وجرد سيفه وحمل قدام العسكر ودعاه الى القتال. فتبعته الرجال وصدموا عسكر الامير يوسف فكسروه وهرب الامير يوسف الى الجبة . ومن هناك الى طاريا . ثم الى بلاد بعلبك . ثم الى الزبداني . ثم الى منين في نواحي دمشق . ثم الى بلاد حوران . ورجع اكثر اصحابه . وقتل في تلك النوبة الشيخ ابو دعيبس جنبلاط .

موقعة بعلبك

وفي هذه السنة انجد للامير بشير ولد وسماه الامير قاسم باسم جده .

وفي هذه السنة حدث فتنة بين الامير جهجاه الحرفوش حاكم بعلبك وبين رجل من الاكراد يقال له الحاج اسماعيل. فمضى الرجل الى دمشق الشام واشتكى على الامير جهجاه الى الوزير مدعياً انه اختلس منه دراهم جزيلة المقدار. وطلب منه ان يوجه معه رجالا اليه وكان الوزير يرغب ذلك لان ولاية الامير جهجاه كانت على طريق الغلبة كما مر . فجهز له عسكراً من رجال الدولة . وكان الامير جهجاه في احدى قرى بعلبك . فما شعر الا والحاج اسماعيل كبس تلك القرية . فخرج الامير جهجاه منهزماً . ودخل الحاج اسماعيل بالعسكر فنهب القرية وكان الامير جهجاه مستوطناً باهله هناك فنهب كل ماله وسبى نساءه ومضى بهن الى دمشق فاكرمه الوزير وانعم عليه والبسه خلعة حكم بلاد بعلبك. وارسله اليها بعسكر عظيم . وكان الامير جهجاه قد رجع الى مدينة بعلبك . وامر ان ترحل سكانها واهالي قراها فرحلوا وحضر هو الى زحله برجال قلايل واستعد لقتال الحاج اسماعيل. وطلب من اهل زحلة انه اذا اقبل الحاج اسماعيل وخرج اليه يخرجون ايضاً معه لا ليقاتلوا لكن يكونون كالمتفرجين ليريه جمهوراً كبيراً . وفي اثناء ذلك وصل الحاج اسماعيل الى بعلبك فلم يجد فيها احداً . وبلغه ان الامير جهجاه في زحلة . فقصده الى هناك . وخرج الامير جهجاه الى لقائه وشاع الخبر في المكان . فخرج اكثر اهل زحلة . ونزل الامير جهجاه باصحابه . وصادم عسكر الدولة مجرأة عظيمة ولما رأى عسكر الدولة ذلك الاقدام ورأى التلال قدامه قد امتلأت بالرجال غلب عليه الخوف فانهزم وسعى

الامير جهجاه في اثرهم. فانثنوا عليه وقاتلوه فظفر بهم وساق وراءهم حتى قتل منهم ما ينوف عن مئتي قتيل . ورجع ظافرًا منصورًا . وعاد الحاج اسماعيل الى دمشق مخذولًا . فاشتد غضب الوزير وعزم ان يجهز عسكرًا عظيماً على زحلة ويخربها وينكب الامير جهجاه . فقيل له ان اهل زحلة ليس هم عصاة ولا حاربوا الدولة فتخريبهم حرام . والامير جهجاه متى رأى عسكرًا لا طاقة له على لقائه يهرب نحو الجبل ولا تقدر ان تملكه ولا يمكن ان يدع بلاد بعلبك تعمر ولا يتولى غيره عليها . وحضر الشيخ عباس التل الى مجلس الوزير. فتوسط امر الامير جهجاه واطلق له نساءه تحت ايراد عشرين الف غرش واخرج له خلعة حكم بلاد بعلبك وارسل اخاه الامير سلطان الى دمشق رهنًا على ايراد المال .

وفي هذه السنة تقدمت الشكوى من الامير بشير ونائبه فارس ناصيف على الشيخ محمد القاضي الى احمد باشا الجزار بانه رجل خبيث لا يفتر عن السعي بين اهل البلاد ومناصبها وهو يدعو الناس الى الامير يوسف خلافًا لامر الوزير. وانه ما دام في الحياة لا تكون راحة في البلاد ولا مصلحة للاموال السلطانية. وكان الشيخ محمد يومئذ في عكا لانه كان يتردد كثيرًا على الجزار وهو ينتظر الانعام منه جزاء على منفعته في نوبة المماليك. ولما تقدمت هذه الشكوى عليه امر بقتله فاذا هو الجزاء . وكان الشيخ محمد من اعقل الناس واسدهم رأيًا واعظمهم دهاء وانفذهم حيلة .

وفي هذا العهد التجأ الامير قاسم الحرفوش الى الامير بشير الشهابي وطلب اسعافه على ابن عمه الامير جهجاه ليتزعه من الولاية ويتولى مكانه . فاجابه الى ذلك وجمع له عسكرًا من الشوف وارسله معه الى زحلة وكتب الى اهلها ان ينهضوا معه وكتب ايضًا الى اهل المتن واعرانها . وكثر جمهور الامير قاسم وتوجه الى قتال ابن عمه الامير جهجاه. وكان الامير جهجاه مقيمًا في قرية تنين. فلما علم بقدوم الامير قاسم خرج الى لقائه . وانتشب القتال بينهم في ارض ابلح . ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى انكسر عسكر الامير قاسم وولى منهزمًا في تلك القفار . فساق الامير جهجاه في اثرهم حتى ابعدهم عن تلك الديار ، ولم يأذن لاصحابه في القتل منهم فكانوا يسلبون خيلهم وسلاحهم

وبتركونهم . وقبضوا في تلك الموقعة على الامير شديد ابي اللمع واحضروه لدى الامير جهجاه . فامر له برد سلاحه وجواده واطلقه عزيزاً كريماً . ولم يقتل في ذلك اليوم الا رجال قلايل . ولم تكن رجال الامير جهجاه مقدار ربع العسكر الذي اتى به . ولما رجع العسكر الى البلاد منهزماً جرد الامير بشير عسكراً آخر واقام عليه اخاه الامير حسن وارسل معه بعض امراء ومشايخ من البلاد فقصدوا الامير جهجاه الى بعلبك ولما بلغ الامير جهجاه قدومهم اليه ترك المدينة خالية من السكان وتقدم الى تلك القرى . فوصل العسكر الى هناك ولم يجد ما يقتات به . فما اقاموا الا قليلاً وانثنوا راجعين . وعاد الامير جهجاه الى بعلبك فاقام بها . وكان من حين كبسه الحاج اسماعيل الكردي ما زال واضعاً ارصاده على مشارف الطرق التي يظن فيها اقبال العدو فاذا لاح لهم قوم انذروه بهم . فان كانوا ممن يستطيع الثبات لهم ثبت والا اخلى المدينة ورحل . وكان في خلال ذلك لا يستقر في مكان خوفاً من غدر الغادرين . واما الامير قاسم فلما رأى ان الامير بشير لا يكفي لقضاء حاجته التجأ الى احمد باشا الجزار فجهز له عسكراً من الدولة والمغاربة وارسلهم معه ومعهم بعض مشايخ بلاد الشوف وامرهم ان يطردوا الامير جهجاه من جميع تلك الاطراف ويتبعوه اينما سار الى ان يأمنوا رجوعه . فساروا حتى رجعوا الى قرب بعلبك . وعلم الامير جهجاه بقدومهم فنهض الى راس بعلبك واقام هناك . فدخل العسكر الى بعلبك فلم يجد فيها احداً وبلغهم انه في راس بعلبك فقصدوه الى هناك . ولما علم الامير جهجاه بقدومهم نهض واقبل على مدينة بعلبك من طريق آخر فما وصلوا الى راس بعلبك حتى كان قد وصل الى بعلبك فنهب ما وجد في تلك الاطراف . وتوجه الى جهة المشرق ووصل الخبر الى الامير قاسم فرجع الى بعلبك واقام بها .

وفي سنة ١٢٠٥ / ١٧٩٠ كان الامير يوسف قد ارسل الى احمد باشا الجزار يطلب صفو خاطره عليه وكان لم يزل مقيماً في بلاد حوران . فاتاه الجواب بالاجابة ودعاه ان يحضر اليه . فحضر الامير يوسف الى عكا ودخل على الوزير وفي عنقه منديل الخضوع . فقبله الجزار واكرمه واعطاه الامان واقام الامير يوسف في عكا مقدار ستة اشهر . وكان الامير بشير بعد خروج الامير يوسف

من البلاد قد تمكن من الولاية وطابت له الايام. فاخذ يوزع اموالاً على البلاد ويطلب مطاليب لم تسبق بها العادة وفرق الحوالات في السبع مقاطعات وضجت الناس بالشكوى من ظلمه الشديد وعجزت عن القيام بمطاليبه . وفي اثناء ذلك امر الجزار الامير يوسف ان يحضر نائبه الشيخ غندور الخوري الى عكا ليبقى رهناً عنده ويلبس الامير يوسف على حكم الجبل ويبقى يورد المال عن يد الشيخ غندور . وكان قد حصل الاتفاق بينهما على ستمئة الف غرش . وكتب الجزار الى الشيخ غندور كتاب الامان وارسله اليه الامير يوسف ودعاه الى الحضور وكان يومئذ في ضواحي الضنية . فاقبل مسرعاً الى عكا ودخل على الجزار فرحب به واكرمه وانعم على الامير يوسف بخلعة الولاية . وكان ذلك في اول شهر كانون الثاني وارسل الشيخ غندور الكتب الى مناصب البلاد يعلمهم بذلك. وشاع الخبر واستبشرت الناس بزوال حكم الامير بشير عنهم. وقامت الافراح والتهاني في جميع البلاد وهربت حوالية الامير بشير من كل مكان. وتزح الامير بشير من دير القمر الى الشوف . ونزل في قرية نيما لانه لم يبق له صديق في البلاد الا الشيخ قاسم جنبلاط لا غير . وذلك لكثرة ظلمه وجوره . لانه لم يترك احداً سالماً من نكبة حتى انه بلعن الامراء بني عمه ولم يحفظ حرمتهم ولم يدع مكاناً خالياً من الحوالات حتى ادبرة الرهبان. وكان طلبه شديداً فاحشاً. وكان يرسل الحوالات ويردفها حالاً باخرى. ويطلب من الانسان اكثر ما يملك كثيراً. ولم يكن يقبل شفاعة ولا عذر ولا واسطة ولا يرثي لاحد ولا يشفق على احد . واشتد العسر في ايامه حتى كان لا يباع شيء. ولا يشترى لان من كان عنده فضول مال لا يجسر ان يشتري بها خوفاً من الشهرة بوجود المال . فرخصت الارزاق والاراضي والامتعة حتى صار ثمن قنطار الزيت بخمسين غرشاً وما دون وحمل الورق بخمسة غروش واقل. وكذلك باقي المبيعات وكان يتولى امر البلص فارس ناصيف وجدعون آغا الترك . ولم يكن عندهما اثر من رحمة الله وخوفه . وكان عندهما رجل من مزرعة العرب المجاورة لبيروت يقال له مخائيل ابو خليل . فكان يسعى بالناس ويفرض عليهم كما يخطر على باله وهو لا يعرف المفروض عليه اكثر الاحيان ولا يعرف ما عنده . فربما كان ما يفرضه عليه بقدر ما يملكه اضعافاً. ومتى جرى القلم بشيء

لزم استيفاؤه على حكمه فلا يترك منه شيء مطلقاً . فجمعوا من البلاد اموالاً لا يعلمها الا الله . وضاقت صدور الناس ونفد ما في ايديهم . ولما شاع خبر الامير يوسف املوا بالفرج من تلك الشدائد. وحضر الى دير القمر بعض افراد البلاد ومشايخها . وتوجه كثيرون الى ملاقاة الامير يوسف. وبينما الناس كذلك وهم ينتظرون قدوم الامير يوسف الى البلاد . ركب الامير بشير ونزل الى عكا وتعهد للجزار بالمال الذي تعهد به الامير يوسف فقبل منه وانعم عليه بتقرير الولاية . وامر بالترسيم على الامير يوسف وبعض اتباعه . فرجع الامير بشير مسرعاً الى دير القمر . وفي رجوعه ادرك الذين كانوا توجهوا لملاقاة الامير يوسف . فامر اصحابه ان يسلبوا كل سلاحهم وبعض ثيابهم . واطلق بعضاً منهم واستاق بعضاً الى السجن واقام في دير القمر . وعادت الحوالات اشد مما كانت قبلاً .

ابو عسكر يونس وفارس الدهان

وفي هذه السنة حدث بين ابي عسكر يونس نقولا وبين فارس الدهان خصومة. فاراد ابو عسكر ان ينتقم من فارس فوشى به عند احمد باشا الجزار. فقبض عليه وطالب منه خمسين الف غرش . واستورد ذلك المال تحت ضمانة ديوان بيروت . وعاد فارس فوشى على ابي عسكر . فقبض عليه واخذ منه خمسين الف غرش ايضاً واطلقه . فرجع الى بيروت ومرض وتوفي . وكان رجلاً عاقلاً وديعاً محمود السيرة والسريرة . وكان له منذ حكم الامير ملحم الشهابي متسلماً ديوان بيروت ولم ينازعه احد عليه وكان محباً للجميع محبوباً من الجميع معتبراً عند الجمهور - حتى انه كان ينهض كل يوم من داره الى الديوان فحيثما مر في الاسواق قامت اليه الناس من الاسلام والنصارى تحييه فلا يملك ان يرد تحية بكل الفاظها . فيقتصر على البعض . وكان له اخ قاصر العقل والهمة . حدث يوماً ما مشاجرة بينه وبين رجل من المسلمين يقال له سيد احمد الزوين. وكان سليط اللسان فشتمه فمضى الى اخيه وشكا اليه ذلك واقسم انه لا يجاوره ما لم ينتصف له من خصمه . فقال : نعم . علي ذلك . وساجطه اذل من قيسي بحمص . فانصرف عنه ودعا ابو عسكر ببعض الحالين . فاعطاه

قفة من الارز يحملها الى سيد احمد الزوين . وكان سيد احمد قد قدم بعد ذلك خوفاً من ابي عسكر ولامه الناس على جسارته وبينما هو كذلك اقبل الحمال بهدية ابي عسكر . فكاد ان يذوب خجلاً واخبر قومه بذلك . ولما كان المساء اجتمعوا ومشوا الى دار ابي عسكر حتى دخلوا عليه فاكرمهم . واقبل الرجل على ابي عسكر واراد ان يقبل يده فامتنع عنه . واخذ يعتذر اليه . وكان تلك الليلة ذلك الرجل وقومه مثل الغلمان يخدمون في مجلسه . ثم لم يزالوا كذلك الى النهاية . واما اخوه فغضب من ذلك لانه كان يرجو ان ينتقم منه فاذا هو قد احسن اليه . فقال له : يا جاهل ! واي انتقام اعظم من استخدامنا رجلاً مسلماً غتن عليه بقبولنا له ؟

وبعد وفاة ابي عسكر استمر فارس الدهان متسلماً ديوان بيروت . وكان على ثروته شحيحاً حتى قيل انه كان يرسل ولده فضل الله الى بساتين له حول نهر بيروت فاذا اراد ان يرسل اليه غذاء ذلك النهار ارسله مع خادمه وكتب اليه رقعة يذكر له فيها عدد الخبز وما يتبعه من ادم كالجبن والبيض ونحوها . وكان لا يبالي بمعروف ومنكر . فمضى الى عكا ولمح ان الجزار يريد ان يطلب مالاً من نصارى بيروت . فضمن ذلك المال بمئتين وخمسين الف غرش طمعاً في تحصيل اكثر فيربح الفاضل . واصبحه الجزار بامر في القبض على النصارى . وفي نصف شهر آذار حضر الى بيروت وارسل الجزار اليها متسلماً صارماً قاسياً . فاعطاه فارس كتاب الوزير في القبض على النصارى . فقبض على اكابرهم والقاهم في السجن واقام عليهم العذاب وكانت الاعوان تعذبهم عذاباً شديداً لا يطاق . فاذا دفع احدهم مالاً خففوا عنه العذاب . وفي غضون ذلك توجه نصور التويني الى عكا وقدم للوزير دفتراً باسماء النصارى مفروضاً فيه على كل واحد منهم مبلغاً من المال بزعمه انهم يقدرون على ذلك ولا يتضايقون به . فكان مجموع هذا الدفتر ثمانمئة الف غرش . فارسل الجزار هذا الدفتر الى فارس الدهان لكي يأخذ بحسبه . فاجابه انه يفرغ جهده في ذلك بحيث انه يأمر بقتل نصور التويني . فامر بقتله . ومضى الى لعنة الله . واشتفى به غليل القوم وتمنوا مثله لفارس لان سعيها كان واحدا . والله على كل شيء قدير .

وزاد الطلب بعد ذلك على الناس واشتد عليهم العذاب . فصاروا يبيعون

املاكهم وثيابهم وامتعتهم بابخس الاثمان واقاموا في السجن ثلاثة عشر شهرًا. وكان اطلاقهم عن يد يوسف ابن قره علي الحلبي ترجمان البنادقة لانه كان له دالة على الجزار فشفع بهم عنده وقبل شفاعته واطلقهم . وكان جملة ما دفعوه من المال اربعمئة الف غرش . لكنهـا بمنزلة ستمئة الف واكثر لانهم باعوا املاكهم بابخس ثمن واحتاجوا الى رشوات كثيرة . وتكاليف شتى . واما فارس الدهان فالهم الله الجزار وارسل قبض عليه والقاه في السجن قبل خروج المسجونين وطلب منه مئة الف غرش واقام عليه العذاب الشديد . ومكث في الحبس مدة حتى مـات تحت العذاب . وكان ذلك عيدًا للنصارى في بيروت يتباشرون به . وقد خف عنهم بذلك ما لحقهم من الهموم والاحزان شماتـة وسرورًا .

وفي هذه السنة توفي الشيخ عبد السلام العماد وكان رأى سحبة بني يزبك . وكان رجلًا حكيمًا فصيحًا سديد الراي حسن التدبير. وكان قد تجاوز في العمر السبعين سنة .

وفي سنة ١٢٠٥ (١٧٩٠) كان الامير قاسم الخرفوش قد رجع الى يعلبك واقام بها كما مر . وبينما هو كذلك اقبل عليه الامير جهجاه فخرج اليه وثارت بينهما . فظفر به الامير جهجاه وقتله وقتل بعض اصحابه وهرب من سلم منه. ودخل الامير جهجاه المدينة وعاد الى ولايته. وكان احمد باشا الجزار في الحاج.

اما ما كان من الامير بشير فانه بعد رجوعه الى دير القمر تشدد كثيرًا في البلص والظلم وطلب الاموال من جميع البلاد عمومًا وخصوصًا . وكان يرسل الحوالات في طلب جانب من المال لا يتبين مقداره فيهتمون في تقدمة ما يقدرون عليه من المال ويلتمسون منه ان يعرفهم مقدار المطلوب فيفرض عليهم بعد ذلك مالاً يستطيعون عليه ولو باعوا كل ما يملكون ثم لا يتزل عن طلبـه ولا يترك شيئًا منـه الا نادرًا . فضجت الناس وضاقت صدورهم ولم يعد لهم سبيل الى الخلاص وكادت البلاد تخرب واهلها يتزحون .

وفي سنة ١٢٠٦ (١٧٩١) بينما النـاس في ذلك الضيق توفي الامير محمد قايدبيه في رأس المتن . فاجتمعت في مناحته افراد المتن واعيان الطوائف. وكان ذلك في شهر نوار. وفي ذلك الاجتماع تحدثوا في امرهم وعزموا على طرد الامير

بشير واختاروا مكانه الامير حيدر ملحم والامير قعدان . وتعاهدوا وتحالفوا على ذلك. وكتبوا الى امراء البلاد ومشايخها واعيانها وطوائفها بجميع المقاطعات. ونهضوا برأي واحد . وطردوا الحوالات واهانوهم ثم تظاهروا بالعصاوة . ولما رأى الامير بشير قيام الناس ضده وعلم ان منشأ هذه الحركة من المتن استدعى بعض امراء ومشايخ كانوا يميلون اليه وجمع رجاله ورجالهم وتوجه بهم الى عين داره عازماً على قصاص اهل المتن وارسل ابن عمه الامير حيدر احمد بجانب من العسكر الى كفرسلوان وامره ان يبتدئ في احراق منازل بني حاطوم . ولما وصلوا الى هناك قامت اهالي كفرسلوان عليهم وامتد الصوت في المتن . فحضرت الرجال . وانتشبت بينهم الحرب فكانت النصرة لاهل المتن . وقتل انفار من رجال الامير بشير. وساب اكثر خيلهم وسلاحهم وارتدوا خاسرين . ولما علم الامير بشير بذلك نهض لدير القمر خوفاً من اهل المتن ان يجتمعوا اليه ومسايقة للامير حيدر والامير قعدان على امتلاك الدير. وعند وصوله عرض الى احمد باشا الجزار ان البلاد قد عصت عليه وحاربته وطردت اصحابه من بينها وان كل ذلك بسبب الامير يوسف ونائبه غندور الخوري لان كتاباتها متصلة الى البلاد . فغضب الجزار وامر بقتل الشيخ غندور . فقتاوه شنقاً . وقيل انه مات قبل وصوله الى المشنقة فعلقوه ميتاً وشنقوا معه ابرهيم عزام واحد اولاده. وكان ابن الشيخ غندور محبوساً في عكا . فمكث في السجن حتى توفي به عن قليل . وانتهت حياة الشيخ غندور وسعادته على هذا المنوال . وترك مرجعيون التي كان لا يقنع بكل ما في يده حتى يسلبها من امراء وادي التيم ويقطع ارزاقهم كما تقدم الشرح. وبقي الامير يوسف في عكا ينتظر ما يقضى له وعليه.

وكان وقت طلوع الحج فخرج الجزار الى دمشق الشام .

موقعة زحلة

وكان بعد رجوع الامير بشير الى دير القمر حدثت فتنة بين اهل الدير وعسكر الجزار المقيم عند الامير بشير. فتأيدت رجال الدير وقتلوا من العسكر مقدار ثلاثين نفراً وطاردوه من الدير وقاموا ضد الامير بشير . فخشي من ذلك ورأى ان اكثر البلاد صار ضده ولم يبق من حزبه الا بعض المشايخ بني

جنبلاط . فجمع عشيرته وتوجه الى صيدا ومعه الشيخ قاسم جنبلاط . ومن هناك ارسل الى دمشق يطلع الجزار بما كان . فامر بقتل الامير يوسف من غير مراجعة . فقتل شنقاً كما قتل الشيخ غندور . وكتب الجزار الى متسلم عكا ومتسلم صيدا ومتسلم بيروت ان يكونوا مؤازرين للامير بشير في الرجال والذخائر . وقبل خروجه الى طريق الحج امر متسلم دمشق ان يجهز عسكراً لمحاربة جبل الشوف . فجمع عسكراً من الدولة والهوارة والمغاربة والارناؤط واقام عليهم قره محمد وكان رجلاً شديداً من وجاق الدالاتيه . فاتوا وضربوا وطاقهم في بر الياس وهربت اهالي الجبل من جميع قرى البقاع . ثم ركب العسكر على زحلة ولم يكن فيها سوى اهلها . فثاروا على حريمهم واموالهم وصادموا العسكر بعزم شديد فكانوا هم الغالبين وارتد عسكر الدولة خاسئاً . وارسل القره محمد اعلم متسلم دمشق بما كان . فانفذ اليهم رجالاً يستعينون بها في القتال وكان قد بلغ اهل الجبل ما حدث في زحلة . فانتخت اكابرها وجمعت عسكراً وتوجهت به الى زحلة لاسعاف اهلها . ونزل عسكر البلاد في زحلة فوقعت منه ثقلة على اهل المكان . وكان في العسكر اقوام غلاظ . فانكر اهل زحلة عشرتهم ولم يكن لهم سبيل الى رفعهم فاخذوا يرحلون نحو الجبل واخلوا لهم المكان. فاقبل عسكر الدولة على زحلة واحرقها بالنار وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر تموز. مع ان اهل زحلة كانوا كفؤاً لعسكر الدولة لو لم يحضر اليهم عسكر الجبل . فكان ذلك عليهم ضرراً جسيماً . وبعد قليل من الايام ركبت الدولة على ارض تعنايل وكان بها اناس من الجبل يجمعون غلالهم اختلاساً . فادركتهم الخيل ولم يعد يمكنهم الهرب . فدخلوا الى مكسة وهي قرية خربة وتحصنوا بها واحاطت بهم الدولة وانتشب بينهم القتال . وكانوا مقدار ستين رجلاً لا غير . وكان معهم راهب من بني الخازن وبعض رجال اشداء. فشجعوا بعضهم وناضلوا عن انفسهم وصادموا الدولة وثبتوا كذلك الى ان امتد الصوت الى الجبل واقبلت الرجال الى اسعافهم فارتد عسكر الدولة عنهم مخذولا . وقتل منهم اثني عشر رجلاً ومن الدولة مقدار اربعين . واقام عسكر الدولة بعد ذلك في بر الياس مقدار خمسين يوماً. وامتد الصوت في جميع البلاد فتقاطرت الرجال من كل جانب واقبلوا على

عسكر الدولة وحملوا عليه حملة صادقة. فولت الدولة منهزمة الى دمشق وتركت كثيرًا من الاسلاب والغلال التي جمعتها من اراضي البقاع . فاغتنمها عسكر البلاد واحرق بر الياس ورجع كل احد الى مكانه .

واما الامير بشير فكان لم يزل مقيماً في صيدا واسعفه مسلم عكا ومتسلم صيدا بعسكر عظيم من رجال الدولة فاقبل به على حرش بيروت واخذ يتطاول على املاك اهل الجبل وبساتينهم التي هناك وارسل جانباً من العسكر الى انطلياس فاحرق بعض البيوت وامتد الصوت نحو قاطع المتن وازواق كسروان. فاقبلت الرجال ولم تجد احدًا لانهم كانوا هربوا ولم يجسروا ان يلحقوهم فرجعوا الى مكانهم . ثم طلع جانب من العسكر الى الشياح واحرق بعض بيوت . فادركتهم بعض رجال الغرب وحدث بينهم قتال . فقتل من الفريقين انفار . وانهزمت الدولة الى الحرش. ثم طلع جانب من العسكر الى المكلس واحرقوها جميعها وبينما انطرح الصوت على بيت مري وبرمانا كفت الدولة راجعة الى مكانها . وتفرست الدولة واستهانت باهل البلاد . لانهم كانوا لا يجسرون ان يتطوروا معهم الى السهل خوفاً من سباق الخيل. فامر الامير بشير ان يركب العسكر جميعه ويطلع نحو الغرب. واذا ملكوا قرية يحاصرون بها ولا يهربون. فركبوا حتى وصلوا الى حدث بيروت . ولم يجدوا احدًا في جميع تلك الديار لان اكثر اهل السواحل هربوا واخلوا منازلهم . فاحرقوا الحدث . وتقدمت المغاربة والارناؤط حتى وصلوا الى بعبدا . فوجدوا فيها بعض رجال . فثار القتال بينهم. فاستظهرت الدولة عليهم وطلبوا الهرب ولم يجدوا سبيلًا اليه فدخلوا الى دار الامير حيدر ملحم. ولم يكن بها احد . فاحاطت بهم الدولة واتصل بينهم ضرب الرصاص والى ان وصل باقي عسكر الدولة هناك كان قد امتد الصوت في الغرب واقبلت الرجال فانتشب بينهم القتال واشتد العراك وجاهد كل فريق منها على قدر ما استطاع . وكانت النساء تدخل بين القوم حاملة لرجالها الماء. وهي ترمي الدولة بالحجارة . وكان عسكر الدولة يقلّ لما يفقد منه من القتلى وعسكر البلاد يكثر لما يقبل اليه من الانصار . وطلبت رجال الدولة الفرار فلم يجدوا سبيلًا لاحاطة الرجال بهم . وقتل منهم في ذلك اليوم مقدار اربعمئة نفر واغتنم عسكر البلاد خيلهم وسلاحهم ولم يقتل منه سوى

رجلين فقط . والمجرح اناس قلايل . ولم يكن في ذلك اليوم من الدروز الا نفر قليل وحسبت تلك الموقعة للنصارى . وكان عندهم يومئذ عيد مريم الواقع في خامس عشر من شهر آب .

وفي ذلك النهار رجع الامير بشير وخشي ان تنزل اليه رجال البلاد فنزل في البحر وسافر الى صيدا . وتبدد العسكر الذي كان معه . والشيخ قاسم جنبلاط تركه ايضاً ورجع الى مكانه .

وفي اثناء ذلك حضر احمد باشا الجزار من الحج ومضى اليه الامير بشير واخبره بكل ما توقع واجتمعت المناصب من جميع البلاد في دير القمر وجددوا العهود بينهم على ان يكونوا قلباً واحداً ويداً واحدة في مصلحة البلاد . وكتبوا الى الجزار انهم قوم يطيعون الله والسلطان ويطلبون صفو خاطره . وانهم لا يقبلون الامير بشير حاكماً عليهم لاجل ظلمه وانهم لا يدفعون الا المال السلطاني المرتب من قديم الزمان . وسألوه ان يرسل خلعة الولاية للامير حيدر والامير قعدان . فضرب الجزار صفحاً عن سؤالهم ولم يرد لهم جواباً . وطيب قلب الامير بشير وجهز له عسكراً عظيماً وارسله الى وادي التيم وارسل الى متسلم عكا ومتسلم صيدا ان يجمعا عسكراً ويرسلاه الى جسر صيدا . ففعلا وارسل الجزار عسكراً آخر الى بعلبك . وكان قصده ان يضايق البلاد من كل الجهات ليأخذها قهراً . ولما بلغ الامير جهجاه الخرفوش قدوم العسكر الى بعلبك اخلى المدينة ودخلها العسكر ونزل بها مطمئناً . وسار الامير نجهجاه برجاله خفية وكبس بعض القرى من معاملة دمشق الشام . فنهب مواشي كثيرة وتوجه الى حيث لا يقدر الجزار ان يظفر به . والعسكر الذي حضر الى وادي التيم اتاه عسكر من جبل الشوف ووقع القتال بين العسكرين فانكسر عسكر الجزار وهربت الخيالة منه ودخلت المشاة الى سراي حاصبيا فحاصرت بها . فاقاموا عليهم خمسمئة رجل يحفظونهم من الفرار ورجع باقي العسكر الى البلاد . وكانت السراي خالية من الزاد . فتضايقت المغاربة والارناؤوط من الجوع وطلبوا من المحافظين عليهم ان يدعوهم لينهبوا بانفسهم فقط ويتركون لهم سلاحهم وامتعتهم . فلم يقبلوا . ولكنهم ندموا اخيراً لان الخيل التي هربت ما غابت الا اربعة ايام . وفي اليوم الخامس اقبلت ومعها عسكر جزار مشغ الامير بشير

ورجاله واغاروا على القرية. فامتد الصوت واجتمعت الرجال وثارت الحرب بينهم بالقرب من الخان . والرجال الذين كانوا يحافظون السراي انصرف اكثرهم الى قتال العسكر الذي حضر فصار سبيل للمحاصرين وخرجوا وانضافوا الى عسكرهم وكافحوا اشد الكفاح فانتصروا على عسكر الدروز وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكسروهم وما زالو في آثارهم يقتلون منهم من ادركوه الى ان توسطوا الجبل . فرجعوا واحرقوا خاصبيا . وتركوها خراباً وعادوا راجعين الى عكا . وكان الجزار قد حضر الى عكا واستدعى كل العساكر ما عدا الذين في بعلبك واقام عليهم قوادا واتحفهم بالعطايا وفرض لهم الاقامات الجزيلة وارسلهم الى اطراف البلاد وكانوا مقدار ثمانية آلاف فحضروا واقاموا في عانوت وداريا وشحيم من قرى اقليم الحرنوب واخذوا يقطعون الاشجار ويحرقون المنازل وينهبون الاموال ويحرشون الناس للقتال. وكان قد وقف اناس من اهل البلاد على حدود البلاد بمقابلة عسكر الجزار ليكفي عنهم عن التقدم ولم يزل في الاقليم . واما العسكر الذي كان في بلاد بعلبك فلم يزل هناك وكان قائده واضاً ارصاداً على طريق المدينة من جهة القبلة احتياطاً من كبسة الامير جهجاه الحرفوش . وكان الامير جهجاه بعد ان كبس بعض القرى في معاملة دمشق ونهبها حضر الى زحلة وعزم ان يكبس عسكر الدولة الذي في بعلبك ولم يكن معه من المقاتلين سوى مئة نفر لا غير. فطلب ان يصاحبه من اراد من اهل زحلة تحت اجرته فاجتمع اليه مقدار مئة رجل ايضاً فاخذهم ومضى بهم الى نحو بعلبك . وكان قد علم بارصاد الدولة فاخذ بطريق آخر من جهة الشمال وامر اصحابه ان يدخلوا معه دخول اللصوص في سكون وخفة ولا يرفع احد صوته ولا يعجل في مشيه الى ان يكونوا توسطوا المدينة وتفرقوا بهم كما رتبهم. وان يتعاهدوا باسم عبدالله فمن سألوه من انت فقال عبدالله فيتركوه والا فيفتكوا به. وصبر حتى جن الليل بظلامه ودخل المدينة برجاله . وكان معه اخوه الامير سلطان . وكان ذلك بعد نصف الليل فتفرقت رجاله كما امرهم ثم صاح بقومه الباقين معه واطلقوا الرصاص وقامت اصوات البارود وصحت اصحابه ففعلت كذلك من حيث هي وانقلبت المدينة بضجيجها وصار الامير جهجاه يدعو باسماء لا مسمى لها عنده من الامراء والمشايخ وطوائف المقاطعات ليوهم الدولة انهم في

صحبته وكانت اصحابه تدعو كذلك وتضج حتى ارتجت المدينة في ذلك الليل ووقع الرعب في قلوب عساكر الدولة لانهم كانوا نياماً . . . فانتبهوا على صوت البارود وضجيج الناس وصهيل الخيل فظنوا ان رجال عربستان انقلبت اليهم فنهض كل واحد منهم من مضجعه وطلبوا الفرار وكانت رجال الامير جهجاه تسأل كل من لقيته عن نفسه فان لم يقل انا عبدالله اعملت فيه السلاح. فقتلوا جماً غفيراً من عسكر الدولة ولم يسلم منهم الا من نجاه الله وكان اكثرهم نهض من مضجعه وهو لا ينتبه على نفسه من شدة الرعب فيخرج منهزماً ويترك سلاحه حيث كان . ولما خلت المدينة من رجال الدولة . دخل الامير جهجاه ورجاله الى منازل العسكر فوجدوا كثيراً من الاسلحة والخيول والاسلاب والاموال فاغتنموها غنيمة باردة ورجعوا الى زحلة . واقام الامير جهجاه هناك . وكان ذلك في آخر شهر كانون الاول .

وفي هذه السنة حدث مطر عظيم في اراضي دمشق في آخر شهر ايلول . فطاف نهر برده وهدم جانباً عظيماً من المدينة وهدم خان الدالاتية واخذ كثيراً من الناس ولم يحدث مثله في تلك الارض قبل ذلك من قديم الزمان . لان ارض دمشق قليلة المطر لا يقع فيها غالباً الا رشاشاً .

« الجزار لا يقدر على البلاد »

وفي سنة ١٢٠٦ (١٧٩١) كان الذين هربوا من كبسة بعلبك توجهوا الى دمشق واخبروا بما جرى عليهم من الامير جهجاه . وكان في دمشق رجل يقال له الملا اسماعيل وكان من رؤساء الدالاتية . فانتخى وتكفل انه يركب على الامير جهجاه ويقتله ويخرب بعلبك . . وكان الملا اسماعيل جباراً عنيداً . فركب بالف ومئتي فارس من رجال الدولة وتوجه الى زحلة . ولم يكن يومئذ من رجال زحلة سوى مئتي رجل فما دون ومن رجال الامير جهجاه مقدار مئة رجل . وكان اهل زحلة قد احتسبوا من غدر الدولة فحفروا خليجاً محيطاً بالبلد والسور . ولما اقبل عليها عسكر الدولة انقسم فرقتين لكي لا يقدر احد منهم على الهرب . وكان الامير جهجاه قد امر ان لا يخرج احد خارج الخليج . وهجمت الدولة على البلد من جهة القبلة ومن جهة الشمال . وثار بينهم القتال وكان بعض رجال

زحلة مكمنين في الخليج الى الجهة القبلية . فكانوا اذا دنت منهم الخيل اطلقوا عليها الرصاص . فقتلوا منهـا وهي لا تراهم . وكان الامير سلطان الحرفوش في الكروم امام البلد ومعه خمسة عشر فارساً . فجال مع الدولة وقاتلها وكان حينما تقدر عليه الدولة يهرب من وجهها فاذا ارتدت عنه ينثني عليها الى آخر الكروم ويرجع . وقتل انفاراً من الدولة واشغل جانباً منها به حتى كادت تستظهر عليه . فتحوّل الى هناك بعض رجال البلد واكمنوا تحت شعاب الكروم فكانوا اذا كرت الدولة على الامير سلطان يطلقون عليها الرصاص فيقتلون منها وأرصاد الخليج تتناول من لاح لها . فانكسرت الدولة وقتل منها خلق كثير وارتدت على اعقابها خاسئة نحو دمشق الشام . وكان القتال ذلك اليوم قد دام بينهم خمس ساعات على استقصائها . وكنت الفقير يومئذ هناك اسمع واري . ولم يقتل من اهل زحلة سوى رجل يقال له ابن المبارك وعرجت الدولة في طريقها على مكان يقال له السلطان ابرهيم . فاقامت اياماً هناك . وفي اثناء ذلك اتت سربة منهم نحو بعلبك في الليل فاصبحت في نواحي ابلح الفرزل وهناك صادفوا بعضاً من المواشي فاخذوها واثني عشر رجلاً فقتلوهم وعادوا راجعين .

واما العساكر التي كانت في اقليم الخروب فكانت كل يومين او ثلاثة تقصد بعض القرى المجاورة لها فتنهب وتقتل ويشد الصوت فتقبل الرجال عليها فتهرب الى منازلها . وبعد ذلك سار منها شرذمة نحو مزرعة الشوف وكبسوها فهربت سكانها وادركوا انفاراً منها فقتلوهم ونساء فسبوها ونهبوا ما وجدوا هناك وعادوا . ثم كبسوا غريفة وكان فيها عسكر من اهل البلاد فقاتلوهم وانكسرت الدولة وقتل منها جماعة فانهزمت . وكان ذلك في شهر شباط . ثم عادوا اليها ثانية فالتقاهم عسكر البلاد واقتتلوا طويلاً وجاهدت الدولة ذلك النهار وافرغت كنانة الجهد فاستظهرت على اهل البلاد وقتلت منهم خلقاً كثيراً . ونهبوا غريفة واحرقوها وتشتت رجال البلاد . وكان قد طال المطال على اهل البلاد في الحرب والنزاع وضجروا من كثرة الاجتماع والافتراق وتعطلت اعمالهم ومصالحهم لانهم بينما كانوا يرجعون من السفرة الاولى يجد عليهم الصوت الى الثانية . وراوا ان ذلك مما يطول عليهم ولا يظفرون بطائل منه لان عساكر

الجزار لا تزال تتجدد وتتفزوا مكاناً بعد آخر . وكان الجزار قد قطع عنهم سبيل القوت من البر والبحر . فقلت الاسعار وقل الوجود واشتغلت الناس في ذلك . فصاروا بعد ان كانوا يذهبون الى الحرب من انفسهم لا يذهبون ولو بالاكراه والاغتصاب . والذاهب منهم لا يلبث قليلاً حتى يعود . فلما رأت مناصب البلاد ذلك عولت على كبسة الدولة نوبة واحدة اما لهم واما عليهم . فاخذوا يجمعون الرجال ويبذلون الاموال ويرغبون ويتوعدون حتى اجتمع اليهم جمهور كبير فرتبوا الفرسان والرجالة والقواد وساروا ليلاً يطلبون قرية شحيم حتى قاربوها فانقسموا ثلاث فرق واحاطوا بها وهجموا هجمة واحدة وعلا صياحهم وضجيجهم وقامت اصوات البارود من كل جانب . وكانت الدولة غافلة في منامها فانذعرت واعجلتها رجال البلاد عن التحفظ . فتركت خيلها وسلاحها وهربت تطلب النجاة . واستطال عسكر البلاد عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة واغتنم كثيراً من الخيل والسلاح والامتعة واحرق جانباً من شحيم وانثنى راجعاً . وكثيرون منه حضروا الى الحرب مشاة فرجعوا خيالة ولما اقبلوا على دير القمر راكبين خيل الدولة ولابسين قلابقهم وثيابهم توهموا ان عسكر البلاد انكسر وان المقبلين عليهم هم رجال الدولة . فخافوا واستعدوا . حتى سبق اليهم الناس وبشروا بالانتصار فقامت الافراح ودارت البشائر في جميع البلاد وكان ذلك في اول شهر آذار .

ولما بلغ الجزار ذلك استشاط غيظاً وكتب الى قره محمد وبقية امراء العسكر يشددهم على الرجوع والثبات واضاف اليهم رجالاً كثيرة وامدهم بذخائر واموال وخيول واسلحة . فنهضوا يطلبون دير القمر . وكان ذلك في ثاني عشر شهر ادار . ولما وصلوا الى قرية عنبال كان فيها قوم من رجال البلاد . فثاروا في وجههم وانتشب القتال بينهم . وكانت رجال البلاد قلائل . فظفرت بهم رجال الدولة وقتلت منهم انفاراً وهرب من سلم منهم الى دير القمر . وامتد الصوت في المناصف والشوف فركب الامير حيدر والامير قعدان وبقية المناصب ورجالهم وتقاطرت الرجال من القرى المجاورة . وكان الشيخ قاسم جنبلاط في كبسة شحيم مع عسكر البلاد . فلما وصل الى هناك خان واعتزل عن العسكر وانحاز الى الامير بشير في عانوت ولما ركبت الدولة هذه المرة على

الدير كان الشيخ بشير ابن الشيخ قاسم جنبلاط في نبع الحمام ومعه جماعة من رجال الشوف . فترك اباه ومضى برجاله الى نصرة البلاد . والتقى الجميع في عنبال ورجع الذين انهزموا من المرقعة . واحاطوا بعسكر الدولة وقامت الحرب بينهم على قدم وساق وعلا ضجيجهم في ذلك الوادي وغطاه دخان البارود وكانت رجال البلاد لا تزال متابعة عليهم ولما رأت الدولة ذلك الهول طلبت الفرار فلم تتمكن منه حتى قتل منها جانب عظيم . فتبددت في تلك القفار وقتل من اهل البلاد رجال قلايل وعادوا بالظفر والغنا .

وعلم بذلك احمد باشا الجزار فوقع من قلبه موقعاً عظيماً وارسل يدعو الملا اسماعيل من السلطان ابرهيم ووعده بكل جميل فحضر الى عانوت ومعه الف واربعمئة فارس واجتمع بالقره محمد وبقية الاغوات واجمع رأيهم على ان يرجعوا الى الجبل ويجعلوها وقعة الانتصار وركب العسكر باسره يطلبون دير القمر . ولما وصلوا الى السمقانية اقبل عليهم عسكر البلاد ولم يكن كفؤاً لهم فكسروه وقتلوا كثيراً منه . وتداعت الرجال من كل جانب وبادرت الى نجدة قومها وكان اول من وصل الى هناك الشيخ جهجاه العماد ومعه رجال قليلة وكان شجاعاً في الحرب فصدم عسكر الدولة وقاتله قتالاً شديداً وثبت معه من بقي من رجال البلاد الى ان تكاثرت الرجال واحاطت كل فريق على صاحبه وكان المكان سهلاً تجول فيه الخيل فكادت ان تكون الدائرة على اهل البلاد لان اكثرهم رجالة لا طاقة لهم على معاركة الخيل الا انهم كانوا قد تعودوا قتال الدولة وهان امرها عليهم فتجلدوا وكان فيهم رجال اشدا. فتخاضوا بين العسكرين والقوا بانفسهم على الدولة وتشددت اصحابهم وكافحوا اشد الكفاح فكانوا هم الغالبين وانهزمت الدولة من بين ايديهم . فساروا في آثارها واعملوا في اقفيتها السلاح . وقتل في ذلك اليوم خلق كثير من الفريقين. وكانت هذه آخر الوقائع بين الدولة واهل البلاد . وبعد انصراف الدولة تشاورت مشايخ البلاد واتفقت على كبس الدولة في عانوت كما فعلوا في شحيم واستعدوا للركوب . وبينما هم كذلك امطرتهم السما. مطراً غزيراً طويلاً فامتنعوا به عن المسير . وفي اثنا. ذلك تحدثت رجال الدولة في امرهم ورأوا انهم لا يقدرون على اخذ البلاد لشدة رجاله وكثرتهم وانه قد قتل منهم كثير

ولم يظفروا بطائل فاخذوا الامير بشير والشيخ قاسم جنبلاط ونزلوا الى عكا واعتذروا الى الوزير بان طرق الجبل عسرة ورجاله كثيرون فلا يمكن ان يؤخذ بالغلبة . وقيل انه قتل في تلك الوقائع مقدار ثلاثة آلاف من الدولة وخمسمئة من اهل البلاد .

ولما رأى الجزار انه لا يقدر على البلاد اراد ان يتلافى الامر بالتي هي احسن . فارسل يطلب الشيخ عبدالله القاضي ليكون واسطة بينه وبين الامير حيدر والامير قعدان ويرسل اليهما خلعة الولاية عن يده ويأمر بفتح صيدا وبيروت قبل خروجه الى الحج . فاحتسب الشيخ عبدالله من مواجهة الجزار لما يعلمه من فعله بالشيخ محمد كما مر . فارسل الامير حيدر والامير قعدان عوض الشيخ عبدالله ثلاثة انفار من عقال البلاد وعقلائها . فواجههم احمد باشا الجزار وطلب منهم مبلغاً عظيماً من المال بدعواه انه صرف على العساكر اموالاً كثيرة . فقالوا ان نفقة العساكر لا بد منها في الحرب والسلام لانها مقيمة ببابه . واهل البلاد افتقروا من ظلم الامير بشير الذي لم يترك لهم عقالا . واذا طلب منهم مالاً لا طاقة لهم به فانهم ينهضون على الوالي كما نهضوا على من ولاه . واخيراً صار الاتفاق على مئة الف غرش واخرج الخلعة للامير حيدر والامير قعدان . ودارت البشائر في البلاد وقامت الافراح في جميع الجهات وامر الجزار بالترسيم على الامير بشير واخيه الامير حسن والشيخ قاسم جنبلاط وابقاهم في عكا الى ان يعود من الحج . وامر برفع اليد عن صيدا وبيروت واطلق السبيل . وكان مع الامير بشير جدعون آغا الترك . فهرب والتجأ الى الامير حيدر والامير قعدان فقبلاه ، ثم قبضا عليه وطلبا منه حساباً وحصلا منه اموالاً كثيرة عن محاسبات للامير بشير واطلقاه ومضى على ذلك مدة طويلة فبلغهما انه يكاتب الامير بشير إخباراً وانذاراً ويدعو اليه الناس من مناصب البلاد ويتخذ بينهم وسائل . فقبضا عليه وشنقاه . وقد ذكرنا ان رسل البلاد كانوا قد تعهدوا للجزار بمئة الف غرش من الامير حيدر والامير قعدان. ولم يكن في ايديهما مال . فطلب المال السلطاني من البلاد وزادا عليه نصف مال ورتبا على كل من يعطي الجزية درهمين فما دون حتى الرهبان وجمعا تلك الاموال ودفعاها الى خزينة الجزار وارتضت الناس بذلك

وعدته سهلًا بالنسبة لظلم الامير بشير ومطاليبه السابق ذكرها .

حريق في دمشق

وفي سنة ١٢٠٧ (١٧٩٢) حدث حريق في دمشق الشام وكان عظيماً جدًا. واتفق انه كان في الليل فاحترق به كثير من القواسير والخانات والمخازن والدور واتلف كثيرًا من الاثاث والامتعة والبضائع . وارتجت المدينة بقسرها وكان الصياح في جميع اقطارها وبادرت الناس لتطفئة الحريق بالماء والتراب . واقبل متسلم البلد واتباعه فقالت الناس تلك غيرة منه على عباد الله . فاذا به قد اخذ يضبط ما سلم من الحريق زاعمًا انه يحق له . وكان ذلك في فصل الشتاء .

وفي هذه السنة تسلم الامير جهجاه الحرفوش حكم بلاد بعلبك من يد احمد باشا الجزار تحت ايراد خمسة آلاف غرش لا غير .

وبها في اليوم الثاني والعشرين من شهر تموز حدث مطر عظيم حتى جرت السواقي . وتفاءلت الناس من هذا الامر النادر الوقوع .

وفي الخامس والعشرين من شهر آب كسفت الشمس بعد الظهر بساعتين ونصف واستمر الكسوف اكثر من ساعة .

غلاء ومجاعة

وفي هذه السنة اشتد الغلاء الذي كان ابتدأ من العام الماضي وعظم جدًا. فارتفعت الاسعار كثيرًا حتى صار كيس الحنطة يباع بثلاثين غرشًا وما زال الامر يشتد حتى نفد القوت فكان رطل الدقيق يباع بشجرة من الزيتون . وقد مات كثيرون من الجوع وغيرهم كانوا يقتاتون من عشب البرية كالبهائم وتخفي عليهم ايام لا يأكلون خبزًا ولا طعامًا . فخالت الوانهم وهيأتهم وفسدت امزجة البعض منهم فمرضوا وماتوا . وحكي ان رجلًا من الشويفات كان يقال له طنوس الدقق غلب عليه الجوع حتى اشرف على الهلاك وكان له بنية خماسية فحدثته نفسه ان يأكلها . فقال لامرأته : اننا لا ننال طعامًا ، فلعلنا نقتات بالماء . فاخذت الجرة تملأها من العين ودعا بابنته فاخذ يديها وحاول ان يذبحها

فامتنعت منه وكانت قد سقطت قوته من شدة الجوع فلم يقدر ان يضبطها ولم يتمالك ان يذبحها . فانجرحت في عنقها . وبينما هما كذلك اقبلت المرأة فرأتهما على هذه الحال فضربته بالجرة فانصرع واخذت البنت وشدت جرحها وهربت بها الى بيوت الجيران . فخجل الرجل بعد ذلك وندم ولم يسعه الجلوس في بيته . فهام على وجهه الى ان دخل بيت رجل من جيرانه يقال له غر البريدي . فجلس ساعة حتى بدت له فرصة . وكان في البيت اناء من اللحم المقدد فاختلسه وخرج به حتى اصاب مكاناً مستتراً تحت جدار فجلس يأكل حتى شبع فمات . وافتقدته زوجته تلك الليلة فلم يرجع واخبرها رجل انه رآه ميتاً تحت الجدار ولديه اناء من اللحم قد بقيت فضلة منه . فبكت وقالت خاف ان يموت جوعاً فمات شبعاً . . وكان الذي ضاعف البلاء ان الجزار امر باليسق على الغلات في صيدا وبيروت لان الامير بشير كان دفع له مبلغاً جزيلاً من المال على حكم البلاد فارسل الجزار يطلب ذلك المال من الامير حيدر والامير قعدان او يسلم الحكم الى الامير بشير . فاعتذرا عن دفعه واراد مضايقة البلاد فامر باليسق ومنع نفوذ الغلات الى البلاد من جميع الجهات براً وبحراً . فتضايقت الناس اشد الضيق وباعوا كل عزيز بثمن بخس ليعاشوا به .

وبينما هم في ذلك الضيق الشديد حدث الوبا . وكان عظيماً لم يحدث مثله في هذه البلاد . وامتد في كل جانب من القدس الشريف الى حلب الشهباء . واهلك اناساً لا يحصى عددها الا الله ولا سيما في بلاد بعلبك والبقاع وبلاد حمص . وابيات كثيرة غلقت ابوابها ولم يبق احد من اهلها ولم يكن يخلو مكان منه حيث توجد الناس .

جرجس باز واولاد الامير يوسف

وفي هذه السنة كان جرجس باز من ديرالقمر ابن اخت الشيخ سعد الخوري عند اولاد الامير يوسف وكان من خواصهم المقربين وكانوا يومئذ في سن الصبوة . فتسلم جميع امورهم وضمن لهم حكم بلاد جبيل من الامير حيدر والامير قعدان ودفع لهما ستين الف غرش واخرج لهم خلعة الولاية من والي طرابلس على عادتها . فقاموا الى مدينة جبيل واقاموا بها وصارت بلاد جبيل

وكل ما يليها في يد جرجس باز وتصريفه وشرع من هناك في مكاتبة الامراء والمشايخ يستميلهم الى مواليه وفتح يده بالعطايا والهبات وكان من كرم النفس ومكارم الاخلاق على جانب عظيم . فمالت اليه الناس ورغبت في صحبته وقد ظهر ان حكم الامير حيدر والامير قعدان كان في يد اهل البلاد والجزار ارتضى به اخيراً من عجز منه . فلم يكن لهما مؤازر في البلاد كغيرهما من الولاة . ولما تظاهر جرجس باز بالدعوة الى اولاد الامير يوسف مالت الناس اليهم واستهانت بهما حتى لم يكن لهما استطاعة على تحصيل الاموال السلطانية . فانصرف عزمهما عن الولاية وارتضيا بولاية اولاد الامير يوسف كما ارتضى اهل البلاد . وتقدم الاعراض الى احمد باشا الجزار بذلك ودفع له جرجس باز مبلغاً عظيماً من المال . فاجاب وارسل خلعة الولاية للامراء اولاد الامير يوسف وحضروا الى دير القمر واقاموا هناك وكان ذلك في شهر آذار . وتنحى الامير حيدر والامير قعدان عن الحكم واضحت الولاية في يد اولاد الامير يوسف بالاسم وفي يد جرجس باز بالعمل لانهم كانو صبياناً كما مر وكان جرجس باز متصرفاً في جميع امورهم ومهماتهم لا يسأل عما يفعل . وكان بعض المشايخ بني جنبلاط يميلون الى اولاد الامير يوسف وبعضهم الى الامير بشير وكان حزب الامير بشير اقوى من اولئك واطول يداً . ولكنهم خافوا من اولاد الامير يوسف ان يقووا اولاد عمهم عليهم ويقيموهم ضداً لهم فقاموا عليهم بغتة وقتارهم . وحدث لذلك شغب واضطراب عظيم ونهضت اولاد الامير يوسف على القاتلين . فاضطروا ان تركوا مواطنهم وتزحوا نحو وادي التيم فاجروا عليهم القصاص في بساتينهم ومنازلهم . وكان هذا الصنيع بتدبير الشيخ قاسم جنبلاط الذي كان يومئذ لم يزل في عكا مع الامير بشير . وتعاطى جرجس باز ومواليه امور الولاية . وطابت لهم الايام ولم يكن من يناوئهم في جميع البلاد .

موقعة العبادية

وفي سنة ١٢٠٨ (١٧٩٣) حدث خصام بين الامير جهجاه الحرفوش واولاد عمه في بلاد بعلبك واقتتلوا فظفر بهم الامير جهجاه وقبض على اثنين منهم فقتل الواحد واعمى الاخر .

وفي هذه السنة لما كان اكثر مناصب هذه البلاد لا يثبتون على عهد ولا يستقرون على رأي نهض البعض منهم ضد اولاد الامير يوسف ورجوع الامير بشير مكانهم واتفق رأي الاكثرين على ذلك وكتبوا الى احمد باشا الجزار وطلبوا الامير بشير . وكان الجزار يومئذ قد رجع من الحج فاجاب سؤالهم وانعم على الامير بشير بخلعة الولاية واصحبه بعسكر عظيم من رجال الدولة وحضر معه الشيخ بشير جنبلاط الذي كان من اكبر اضداد اولاد الامير يوسف . ولما وصل خبر قدوم الامير بشير الى البلاد توجهت اكثر المناصب لملاقاته . وقام جرجس باز باولاد الامير يوسف الى جبيل واكثر اهل الدير تركوا مواطنهم وارتحلوا والمشايخ النكدية اخلوا منازلهم وتشتتوا في البلاد ودخل الامير بشير واخوه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط واخوه الشيخ حسن مع عسكر الدولة الى البلاد ونزل في عاليه من قرى الغرب الاعلى وارتجت منه البلاد . فاقام هناك ثمانية ايام ونزل الى حرش بيروت واقام هناك مقدار اربعين يوماً . وكانت الناس تتوارد اليه وتقدم له التهاني والهدايا وكان العسكر الذي معه حيثما مر او نزل يتطاول على كل ما يجده من اموال البلاد ومواشيها وفي اثناء ذلك ارسل الحوالات بطلب اموال وذخائر من الغرب والمتن وكسروان . فنهض بعض طوائف ضده وطردوا الحوالات بغير اذن امرائهم . وكان الامير منصور مراد يميل الى الامير بشير فلما رأى عزم الطوائف اتصال اليه بعض المناصب وارباب الكلام وعزم ان يدخل الامير بشير مع العسكر الى المتن وراسل الامير بشير بذلك فركب العسكر وتوجه نحو المتن حتى وصل الى البادية في اول قرى المتن فالتقاه اهلها ومن يجاورهم في تلك القرى وارادوا ان يمنعوه عن الدخول الى المتن . فقاتلهم واستظهر عليهم وقتل منهم انفاراً . فولوا هاربين . وهجم العسكر على البادية فنهبها وسبى نساءها . وكان فيها ودائع كثيرة لاهل الشوف والغرب من دراهم وحرير وحلى واقمشة ومختلفات شتى لانه لم يخطر في بالهم ان العسكر يتصل الى هناك . ونهض الامير بشير من هناك الى رأس المتن حتى وصل اليها ونزل بها وكان في مروره ينهب العسكر كل ما يصادفه . وكان دخول العسكر الى المتن بغتة فلم يكن للناس فرصة ان يودعوا اموالهم . فكان الذي نهبه العسكر من المتن اكثر

من الذي سلبه الامير بشير منها في حكمه اضافاً . واقام الامير بشير في رأس المتن بالعسكر . وكان ينوف عن خمسة آلاف . وكان معه اثني عشر مدفعاً وكان يأمر باطلاقها كل ليلة وقت العشا. فترتج منها البلاد . واخذ بعد ذلك يوزع الحوالات بطلب الاموال والذخائر وارسل المباشرين الى جميع دور المناصب واديرة الرهبان يفتشون على ودائع اولاد الامير يوسف والمشايخ النكدية . وحيثما وجدوا شيئاً من ذلك يضبطونه . وشاع الخبر ان الامير بشير يريد ان يتحول الى بلاد جبيل ولكن لم تعلم الناس من اية جهة يكون مروره . فكنت ترى اهل الساحل ينقلون امتعتهم الى الجبل خوفاً من مروره عليهم فيفعل العسكر كما فعل في مروره من البادية الى رأس المتن واهل الجبل ينقلون حوائجهم الى الساحل واهل الضيع الى المزارع واهل المزارع الى الضيع ولا احد يعلم كيف يتم الامر . وما زالوا كذلك مدة اقامته في الرأس وقلع العسكر اكثر اشجار الرأس وما يجاورها واشعله حطباً فضلاً عن الامتعة والمواشي .

وفي ذلك الوقت عقد بعض اهل المتن رأياً وعولوا على طرد الامير بشير من البلاد وتعاهدوا مع بعضهم وكتبوا الى الامير حسين ابن الامير يوسف في جبيل واستدعوه اليهم فركب الامير حسين بعسكر من نواحي بلاد جبيل وجمع في مروره رجال كسروان وقاطع المتن . واقبل نحو المتن حتى وصل الى بعبدات فارسل علماً الى الامراء والطوائف الذين استدعوه . واستدعاهم الى المبادرة نحوه لكي يهجموا معاً على عسكر الدولة . وكان قد اختلف عزمهم بعد ارسالهم اليه فلم يحضر احد منهم . فرجع الامير حسين الى حيث اتى وتفرقت الرجال التي جمعها وازداد خوف الناس من الامير بشير .

وفي اثنا ذلك توفي الشيخ قاسم جنبلاط في عكا فارسل احمد باشا الجزار يطلب ابنه الشيخ بشير ان يحضر اليه . فلم يجسر على النزول الى عكا فاعتذر اليه . وارسل الجزار الى الامير بشير وقائد العسكر الذي معه ان ينزلا من راس المتن ويقيما في حرش بيروت . فنزلا واقاما هناك . وبعد قليل من الايام ارسل الى قائد العسكر ومتسلم بيروت ان يقبضا على الامير بشير واخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف الذي كان متسلماً باب الامير بشير

ويرسلوهم الى عكا . وكانوا يومئذ في المدينة . فقبضا عليهم وارسلاهم الى عكا في البحر . وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر آذار .

وفي صباح ذلك اليوم حدث في الحرش خصومة بين المغاربة والدالاتية . وكانت الارناؤط من غرض الدالاتية فانتصروا على المغاربة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى كادوا يفنوهم عن آخرهم. وعلى هذا المنوال تبددت العساكر وشاع الخبر في البلاد وهربت حوالات الامير بشير واستبشرت الناس بالفرج. وكانت اقامته في البلاد تلك النوبة مقدار اربعة اشهر . وفي وصوله الى عكا امر الجزار باليسق عليه وعلى اخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف. وبقي حكم البلاد سائباً من غير حاكم مدة وجيزة الى ان عرض جرجس باز الى الجزار وطلب منه الخلعة لموالية اولاد الامير يوسف . فاجاب الجزار وانعم بالخلعة عليهم . وقاموا من جبيل الى دير القمر وتقدمت لهم التهاني من جميع البلاد ووزعوا المال السلطاني مضاعفاً . وكان مؤازراً لهم الشيخ بشير نكد والشيخ عبدالله القاضي وارسل جرجس باز الى الجزار مئة الف غرش وارسل اخاه عبد الاحد يقيم في عكا بمنزلة رهن على دفع بقية المال الذي تعهد به . وكان قبل ان يقبض الوزير على الامير بشير واصحابه ارسل الامير بشير قبض على رجل مذنب من اهل ذرعون احدى قرى المتن وسلمه الى مسلم بيروت فامر بقتله. وبعد اخذ الامير بشير الى عكا اراد اهل القتيل ان يأخذوا بثأره فنزل منهم اناس الى نواحي المدينة . فصادفوا رجلاً مسلماً فقتلوه وهربوا . وشاع الخبر في المدينة فخرجت الناس في طلبهم فلم يدركوهم فرجعوا الى المدينة وهم في حدة الغضب فقتلوا كل من كان فيها من اهل الجبل وكانوا مقدار مئة نفر اكثرهم نصارى . وكان القاتلون دروزاً .

وفي ١٢٠٩ (١٧٩٤) ارسل احمد باشا الجزار عسكراً من رجال الدولة الى بعلبك يريد القبض على الامير جهجاه الحرفوش. وكان الامير جهجاه لا يزال على حذر من طوارق الايام كما مر . فعلم بذلك قبل وصول العسكر. وهرب فلم يدركوه . وكان قبل خروجه من بعلبك نادى في اهلها بالرحيل فرحل اكثرهم. وادرك العسكر فارس مسلم فقتلوه وكان من خواص الامير جهجاه.

عبد الله باشا العظم

وفي سنة ١٢١٠ (١٧٩٥) عند رجوع احمد باشا الجزار من الحج اتته النزلة عن دمشق الشام وتولاها عبدالله باشا العظم وارسل خلعة ولاية بلاد بعلبك الى الامير جهجاه الحرفوش فتولى على احسن سبيل . وبعد وصول الجزار الى عكا انعم على الامير بشير واخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط واخرجهم من الحبس بعد ان كان لهم مقدار سنة في الاعتقال . وولى الامير بشير على حكم الجبل والبسه خلعة الولاية وارسل معه عسكراً الى دير القمر . وكان جرجس باز في الدير مع مواليه اولاد الامير يوسف فنزحوا الى جبيل ومضت معهم المشايخ النكدية وبعض مناصب البلاد . وارتجت البلاد من دخول الامير بشير واضطربت خوفاً ورحل بعض اهلها وتوجه الامير بشير بالعسكر في طلب اولاد الامير يوسف واصحابهم فاحتموا في طرابلس وطلب الامير بشير من متسلم طرابلس ان لا يقبلهم عنده فلم يجبه الى ذلك ورجع العسكر واقام في جبيل مع الامير حسن . وكان في رجوعه قد مر على بعض قرى وادية فنبها . ورجع الامير بشير الى دير القمر وارسل ضبط املاك الامراء اولاد الامير يوسف وامر بقصاص كل من كان معهم وهدم منازل مشايخ النكدية في الدير اسأ على اس . وكان ارباب الكلام في دولته الشيخ بشير جنبلاط والشيخ جهجاه العماد والشيخ احمد القاضي والشيخ نجم العقيلي . فاتفقوا على قتل بني عبد الصمد من عين ماطور . وتلافوهم حتى استأمنوا . فغدروا بهم وقتلوا منهم سبعة انفار وقبضوا على جماعة منهم . وكان الوزير قد ابقى عنده على سبيل الرهينة زوجة الامير بشير وولديه الامير قاسم والامير خليل وابن اخيه الامير ابرهيم وزوجة الشيخ بشير جنبلاط . وارسل الامير بشير يطلب دراهم من اهل البلاد يرضي الوزير ويطلق اولاده ومن معهم هناك وجمع مالاً جزيلاً وارسل الى الجزار دفعة من المطلوب . فاطلق له زوجته واحد ولديه وابقى الاخرين تحت البقية . وما زال الامير بشير موزعاً الحوالات في البلاد يطلب المال لانه كان قد تعهد للجزار بان يدفع له كل شهر خمسة وعشرين الف غرش وكان يطلب منه نفقة عسكر ومنافع لاصحابه وكان الطلب كثيراً متصلاً . وكان

المطلوب من اهل كسروان وهي اصغر المقاطعات خمسين الف غرش . وبعد الشفاعات والوسائل ترك لهم خمسة الاف واخذ البقية . وكان اكثر الطلب والظلم على النصارى لانه كان يراعي الدروز بعض المراعاة احتساباً منهم اي من قيامهم عليه .

وفي ذلك الوقت اتفق ان الامير منصور مراد حضر من المتين الى دير القمر لمواجهة الامير بشير . ولما اراد الانصراف منعه الامير بشير وقيل انه رسم عليه بامر الجزار وبلغ الخبر الى المتن فاحتسب اهلها من ذلك ثم ان الامير منصور صنع حيلة وهرب ليلاً مع نائبه ناصيف الحويس ماشين وتركا جواديهما في الدير وصار فرح عظيم في جميع المتن وامر الامير منصور اهل المتين واهل بكفتا ان يقيموا نساءهم واولادهم وانتقالهم الى مكان آخر ولا يبقى منهم الا رجال الحرب . ففعلوا وارسل الامير بشير حوالية على الامير منصور يطلب جانب من المال . ورأى الامير منصور ان بني عمه لا ينهضون معه فقبل الحوالية واكرمهم وتوسط امره بعض المناصب واصلحوا بينه وبين الامير بشير. وصفا خاطره عليه.

الجزار وقلعة سانور

واما اولاد الامير يوسف فكانوا لم يزالوا في طرابلس . وكان الوزير في الجزة . فلما حضر طلبوا منه الاسعاف وجمعوا العساكر بامداده وعزموا على غزو الامير حسن والعسكر الذي معه في جبيل . وبلغ الخبر الى الامير بشير فارسل نجدة الى اخيه. وكذلك الجزار ارسل نجدة في البحر ونهضوا جميعاً من جبيل وخرجوا الى ملاقاة عسكر طرابلس فانهزم من غير قتال ورجع اولاد الامير يوسف نحو بلاد عكار . ورجع اكثر اصحابهم الى البلاد وطلبوا رضى الامير بشير . فعفا عنهم وطاب له الحكم في تلك الايام .

وفي هذه السنة لما زالت ولاية دمشق عن احمد باشا الجزار رفع الحرب عن الشيخ يوسف الجزار صاحب قلعة سانور التي بالقرب من جبل ذابلس . وهي قلعة عظيمة حصينة على جبل لا تسلك اليه الخيل الا على طريق واحد عسر . وكان الجزار قد حاصرها مقدار سبع سنوات ولم يقدر عليها. وكان كل سنة يجدد الركبة عليها مرتين وثلاثة ولم يظفر منها بطائل . وعزم في بعض تلك

السنين على بناء قلعة بازائها . فاحضر اهل الصناعة وشرعوا في البناء . فخرجت رجال الشيخ يوسف الجزار ليلاً وهجموا على العسكر والعاملين معه في ذلك البناء . فقتلوا منهم مقتلة عظيمة . وهرب من سلم منهم فتبعوه الى ابعد مكان وقتلوا من ادركوه ورجعوا فهدموا ما كان قد قام من البناء ، وعادوا الى القلعة . وفي نوبة اخرى امر الجزار ان يفتحوا خليجاً في الارض تحت القلعة فيهدموها بالبارود . فاحتفروا سرباً تحت الارض ولم يقدر الشيخ يوسف ان يمنعهم حتى قربوا من ارض القلعة . فاخرج اناساً يجلسون فوقهم ويضربون بالمطارق والحجارة على الارض في النهار والليل . ولما سمعوا اولئك من تحتهم توهموا انهم صاروا تحت القلعة وان ذلك وقع حوافر الخيل واعمال الخدم فلم يتقدموا . ووضعوا هناك صناديق شتى من البارود ورتبوها حسب صناعتهم والقوا عليها النار فاشتعل البارود وزعزع تلك الارض وحمل صخوراً عظيمة وقطعاً من ذلك الجبل . فوقعت على العسكر فقتلت منه خلقاً كثيراً وطلب الباقون الفرار . فخرجت اليهم اصحاب الجزار وقتلوا من ادركوه منهم واغتنموا كل ما كان معهم من ذخائر واموال وآلات فتقووا بها وعادوا الى القلعة . فغضب الجزار على الحفارين وقتلهم جميعاً . وجدد الركبة على القلعة . وما زال ينفق الاموال ويهلك العساكر ولا يظفر بمراده حتى زالت عنه ولاية دمشق وتولاها عبدالله باشا فتقدم له الشيخ يوسف الجزار التقادم الفاخرة ودفع له الاموال السلطانية المعتادة . فارسل اليه خلعة الولاية على جبل نابلس . ولم يعد سبيل للجزار عليه .

وفي هذه السنة اتفقت امرأة من زحلة مع رجل على ان يقتل زوجها ويتزوج بها . فاتى الرجل ليلاً . وقام هو والمرأة على زوجها فقتلاه وحملاه على دابة ومضى به الى بعض الوهاد فالقاه هناك ورجع . ليقال انه قتل في الغابة فلا يتهم بقتله . وكان اهل القتيل ينكرون على قاتله انه يتردد على بيته ولا يحسنون الظن فيه . فلما فقدوا نسيبهم سعوا في طلبه فلم يجدوه وسألوا المرأة فقالت لا ادري الى اين مضى ورأوها غير مبالية بامره فقبضوا عليها وعذبوها فاقرت بما كان . فارسل الامير مراد ابن الامير شديد ابي اللمع فقتل الرجل والمرأة .

موقعة جبيل

وفي سنة ١٢١١ (١٧٩٦) جدد جرجس باز واولاد الامير يوسف ركبة ثانية على جبيل واستنجد والي طرابلس ايضاً واستغاث بمحمد بك الاسعد صاحب عكار وجمعوا عسكراً من معاملة طرابلس وعكار ينوف عن ثمنية آلاف محارب واقبلوا نحو مدينة جبيل . فخرج الى لقائهم الامير حسن ومن معه من عسكر الجزار وكانوا قلائل . فثارت بينهم الحرب . ولما اشتد القتال خان محمد بك الاسعد وتقهقر باصحابه الى الوراء فانكسر العسكر جميعه وقتل منه اكثر من ستين نفراً ورجعوا الى نواحي طرابلس. ورأى جرجس باز ان لا سبيل له الى اخذ البلاد الا باهل البلاد فوقعت المراسلة بينه وبين امراء المتن وصار الاتفاق على حضور الامراء الى ارض البقاع . فحضروا . وارسلوا يستغيثون بعبدالله باشا والي دمشق. فارسل اليهم الملا اسماعيل بعسكر من وجاق الدالاتية . وحضرت الامراء الى زحلة . واخذ عسكر الدولة ينهب قرى المشايخ بني جنبلاط . وكان الامير بشير ارسل يخبر الجزار بذلك والقى النفير في البلاد فجمع عسكراً وافاه عسكر من عند الجزار . وساروا جميعاً الى قتال الملا اسماعيل . فكسروه وقتلوا جماعة من رجاله . فرجع الى دمشق الشام وتبعه الامراء باصحابهم الى هناك. وفي اثناء ذلك توسطت امراء المتن والشيخ عبدالله القاضي والمشايخ النكدية واصلحوا بينهم وبين الامير بشير . فاستأمنوا وحضروا الى دير القمر وواجهوا الامير وخلع عليهم وطيب قلوبهم واقاموا في منازلهم الى حين . فغدر بهم وقتلهم . وقيل انه وقع على كتابات منهم ضده . وكان الذين قتلوا في السراي الشيخ بشير واخوته الشيخ واكد والشيخ سيد احمد والشيخ قاسم والشيخ مراد . والذين قبضوا عليهم وقتلوهم فيما بعد اولاد الشيخ بشير الشيخ علي والشيخ جهجاه والشيخ سعد الدين والشيخ كليب وابن الشيخ واكد. وكان قتلهم عن يد المشايخ بني جنبلاط وبني العماد . ولما قضوا عليهم ارسلوا حالاً الى كل البلاد يطلبون من بقي منهم عازمين ان يمحوا ذكرهم عن وجه الارض . فلم يظفروا بهم وبقي منهم ستة عشر ذكراً رجالاً وصبياناً . وكان اكبرهم الشيخ سلمان . فهربوا الى اراضي دمشق وانضموا الى اولاد

الامير يوسف واحتموا هناك . واقاموا مدة من الزمان فضاق مـا في ايديهم ورأوا ان الفرج بعيد فراسلوا احمد باشا الجزار وطلبوا منه الامان . فاجابهم بالرضى والقبول ودعاهم اليه . فحضروا جميعهم فاكرمهم وطيب قلوبهم وقرض لهم نفقات كافيـة واقاموا عنده مستأمنين . وبعد حين من الدهر حضر منهم الناس الى صيدا ينتظرون ما يكون من تصاريف الايام . وكان الامير بشير قد ضبط املاكهم واملاك اولاد الامير يوسف ووزع بعضهـا على المشايخ الجنبلاطية والهادية والبعض من بني عمه وكان قد تعهد للجزار بثمانية آلاف غرش مقسطة على ست عشرة سنة . فرأى ان محاصيل البلاد لا تفي بذلك فجمع من البلاد المال السلطاني طاقاً ونصف طاق وفي آخر السنة فرض شاشية على كل رجل ثلاثة غروش من الدروز والنصارى خلا العقال والرهبـان . فاوردت الناس لكن اهل القرى صاروا يحسبون انفسهم اقل عدداً مما هم . فاقام الطلب على كل مكان بحسب كثرة اهله وقلتهم من غير اعتبار العدد على شرط التأجيل الى ست عشرة سنة . ودام ذلك الى ان فـات الاجل فجعله مالاً سلطانياً يستورد كل عام . ثم زاد عليه طاقاً فطاقاً حتى صار ستة اضعاف . وهو الى يومنا هذا كذلك . والعوذ بالله من الزيادة ايضاً .

وفي هذه السنة بعد غياب الشمس بساعتين ظهر في السماء شهاب من نار عظيم جداً مخالفاً لهيئة الشهب المعتادة . فاضاء منـه الوجود مقدار مدة صلاة الفاتحة . وكان منظراً هائلاً متجها من ناحية القبلة الى ناحية الشمال . وتفاءل[1] الناس منه . وكان ثمن كيل الحنطة في ايام البيادر من ستة غروش الى سبعة ثم تناقص فرجع الى الخمسة .

وفي هذه السنة اتى جراد من جهة القبلة وكان كثيراً جداً . فمر بسواحل البحر وباض هناك ثم تولد . وكان عاماً من بلاد صفد الى طرابلس . ولما صار يزحف توجه نحو المشرق وامتد في كل البلاد وانتهى الى الجرد وبلاد البقاع وبعلبك . واتلف غراساً واشجاراً لا تقدير لها . وعطل اعمال الناس لاشتغالهم بتحويله عن ارضهم . ولما نبتت اجنحته وصار يطير اتاه الله بطـائر السمرمر فنفاه وافناه . وكان ذلك في آخر شهر حزيران . وكان قبل ذلك لم يترك

(١) تفاءلت الناس . يقصد « تشاءمت » وخافت .

في جميع الاراضي التي مر بها نباتاً اخضر قط ، الا غصناً دقيقاً من الدفلة على جانب نهر الصفا كان يجتمع عليه فيلوي الى الماء .

الافرنسيون في مصر

وفي سنة ١٢١٢ (١٧٩٧) اقبلت العساكر الفرنساوية نحو الديار المصرية ففتحوا مدينة الاسكندرية ومصر القاهرة . واقبلوا نحو غزة ويافا وبلغوا عكا فحاصروها وملك احمد باشا الجزار طريق البحر فكان يضبط كل ما يجده من السفن وامر باخراج النصارى من الاساكل البحرية واستعد لحرب الافرنج استعداداً بليغاً وذاقت نصارى المدن تلك السنة البلاء الشديد .

وفي هذه السنة توفي الامير سيد احمد اخو الامير يوسف الشهاب في حدث بيروت . وكان الجزار قد غضب على الامير بشير واراد ان يخلعه من الولاية وينصب مكانه اولاد الامير يوسف . فاوسلوا يبشرون عمهم بذلك. ولما وصل المبشر الى دار الامير سيد احمد اراد ان يخرج لمواجهته ، وكان قد افقد بصره اخوه الامير يوسف كما مر . وكان في غرفته دون الباب مسطبة على ذراع فسقط منها فاغمي عليه ساعة . ورفعوه الى مضجعه فمات بذلك . وفي غد ذلك اليوم توفي ابنه الامير يوسف في الغرب الاعلى وكان مريضاً . وكان ذلك في شهر تشرين الثاني .